

الشاعر البحريني علي عبدالله خليفة؛ وقفة مع شعره وأدبه

مهدي ممتحن

أستاذ مشارك بجامعة آزاد الإسلامية في جيرفت، إيران.

طيب عبدائي

خريج جامعة آزاد الإسلامية في جيرفت، إيران.

Dr.momtahen@yahoo.com

الملخص

علي عبدالله خليفة، شاعر الغوص والبحر من أبرز الشعراء الحركة الأدبية الجديدة في البحرين، تلك الحركة التي انبثقت في الستينيات وصاحبت التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في البحرين، وامتزجت بها وتخلقت في أتونها الواقعية.

إنه قد أنشد شعراً في مختلف الأغراض الشعرية، لذلك نجد دواوينه تشتمل مضامين متنوعة مثل: البحر، المرأة، الوطن، والنخلة، و...إلخ. ونلاحظ في أشعاره أن لبيئته المعيشية دوراً كبيراً في إنشاده الأشعار الفصيحة كما صاغ كلمات ملائمة بظروف التي كانت تمر في حياته ونرى في ديوانه الأول "أنين الصواري" قد جسّد حياة غواصي اللؤلؤ ومهنتهم الشاقة ومكابد سفرهم في سياقٍ مسرحيٍّ جميل.

نشأ علي عبدالله خليفة على حبّ الشعر العربي القديم فكتبه بشفافية وعذوبة ورقّة، خرج من دائرة إيقاعه العروضي الرتيب، باحثاً في شعر التفعيلة عن مساحات جديدة، رحبة، مفتوحة الأبواب. وحين لم يرض هذا الجديد ذائقته الشعرية، وجدناه يقبل صوب الأجد، الذي ما فتى يستشرف فضاءات لا حدود لها ولا نهايات.

الكلمات الدليلية: على عبدالله خليفة، الشعر، البحرين، الأدب، النقد، المضامين، الوطن.

المقدمة

على عبدالله خليفة أحد من أبرز الشعراء المعاصرين الذين رسموا أفق الحركة الشعرية الحديثة في البحرين، ويعدّ نوعاً متميزاً من أدب البحر هو شعر الغوص على اللؤلؤ، ويقدم بذلك إضافة ثرية لأدب البحر.

تعدّ تجربة على عبدالله خليفة تجربة طويلة وثرية، فقد عدّ صاحبها من شعراء الحداثة الأول ومن المؤسسين الأوائل للشعر الحديث في البحرين. بل اعتبره بعضهم "فيثارة المعاصرة" لما يجمع في هذا الشاعر من غنائية وإيقاع شعري يشدنا إلى أصالة قصائد التفعيلة وما تكتنزه من موسيقى وعذوبة وألحان وبين المعاصرة التي لم تنأ بالشاعر عن هموم مجتمعه وقضايا وطنه والظرف التاريخي الذي ظهر فيه ومختلف المتغيرات التي أمت بالمجتمعات العربية عموماً والمجتمع البحريني على وجه الخصوص.

وهو ناشر ورئيس تحرير مجلة "كتابات" الأدبية البحرينية، وهو راعي الحركة الأدبية الجديدة في البحرين، كما أنه باحث ودارس ومبدع للموال والتراث الشعبي الخليجي، فهو المشرف على مركز التراث الشعبي بالخليج، ورئيس تحرير مجلة "الماثورات الشعبية" كما تتدفق أغانيه عبر حناجر مطربي الخليج. نشر على عبدالله خليفة عدداً كبيراً من الدواوين الشعرية.

يتناول هذا المقال في البداية، الحياة وسيرة الشاعر، ثمّ يعدّ مؤلفاته الشعرية ودراساته الأدبية ثمّ يسوق إلى أشعاره ودراسة مضامينها وفي النهاية يبيح حول الشعر الرمزي والواقعي.

لمحة عن حياة الشاعر على عبدالله خليفة

وُلد على عبدالله خليفة بمدينة المحرق عام ١٩٤٤م في بيت فقير ينتمي جميع أهله إلى طبقة الغواصين وتلقى تعليمه في مدرسة البحرين حتى أتم المرحلة الثانوية، وكان يعمل بعد أوقات الدراسة ليساعد عائلته على أود العيش. ثم اشتغل بعد إتمام دراسة الثانوية موظفاً في إدارة الجمارك بالمنامة.

وبدأ على ينشر محاولاته الشعرية الأولى في مجلات الحائط بالمحرق ثم في الأعلام الشهرية (هنا البحرين) حتى إن عادت الصحافة الأهلية إلى الصدور في البحرين عام ١٩٦٥م، فبدأ ينشر في جريدة الأضواء. ثم جمع قصائده في كتاب أصدره عام ١٩٦٩م، تحت عنوان (أنين الصواري) كان عبارة عن مجموعته الشعرية الأولى، وقد تركزت موضوعاته على تجربة الإنسان المحلي ومعاناته الواقعية من خلال شخصية الغواص كما يلاحظ عبدالله واختيار هذا الاسم دليل الثقافة ودليل المعاناة الطائي. وكان جل قصائده المجموعة يلتزم الشكل

التفصيلي المتحرر لذلك فهي أول مجموعة شعرية تصدر في إطار مرحلة الشعر الواقعي الجديد التي انبثقت عن أحداث حركة ١٩٦٥ الشعبية، لتحدد انطلاقة هذا النوع من الشعر وملامحه المتميزة على كل ما سبقه على المستويين الشكلى والموضوعى، أو بمعنى أدق على مستوى الصياغة المتطورة شكلاً ومضموناً.

وبعد صدور مجموعة الأولى ببضع شهور اشترك على مع زملاء له من الأدباء الشباب في تأسيس أسرة الآداب والكتاب، وهو أول كيان أدبى حديث في البحرين بعد النادى الأدبى الذى تأسس قبل نصف قرن منه تقريباً. وفي طار أسرة الأدباء كانت انطلاقة على خليفة القوية، كما كانت انطلاقة الحركة الشعرية الجديدة برمتها. فقد تسلم على مراكز قيادية في إدارة الأسرة الأدبية خاصة في سنواتها الأولى.

هو يعيش مذ ولد شاعراً قبل أربعين عاماً في حدائق الوجد المعبر عن الإبداع والفن الأصيل، من مدينة المحرق شاهد البحارة والغواصين في رحلاتهم التي كانت تسافر فيها المراكب والأحلام، وتبقى الدموع متوهجة إلى أن يعود الأحبة الذين لا يبتلعهم البحر من رحلات الغوص، ويعتبر خليفة نموذجاً للشاعر الذى يمزج بين الشعر الشعبى والفصيح، كما أن له صولات وجولات في التراث العربى، واختيرت قصائده ضمن المقررات المدرسية فى العديد من بلدان الخليج، إضافة إلى ترجمة مختارات من أشعاره إلى لغات عالمية عديدة، وهو شخصية محبوبة تبوأ العديد من المراكز الثقافية الهامة فى بلاده.

سافر الشاعر على عبدالله خليفة لمدة سنوات إلى القطر وهو يعتقد قد اكتسب فى القطر تجربات عديدة ويقول فى حوار مع جريدة الاتحاد فى: ١٧ سبتمبر ٢٠٠٧ حول هذه التجارب. على عبدالله خليفة، يبدع نوعاً متميزاً من أدب البحر. هو شعر الغوص على اللؤلؤ، ويقدم بذلك إضافة ثرية لأدب البحر.

شخصيته الأدبية

على عبدالله خليفة، شاعر الغوص والبحر. من أبرز الشعراء الحركة الأدبية الجديدة فى البحرين، تلك الحركة التى انبثقت فى الستينيات وصاحبت التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى البحرين، وامتزجت بها وتخلقت فى أتونها الواقعية. وهو شاعر ورائد فى الحياة الثقافية بالبحرين. فهو شاعر فصيح وشاعر عامى أيضاً. وهو ناشر ورئيس تحرير مجلة "كتابات" الأدبية البحرينية، وهو راعى الحركة الأدبية الجديدة فى البحرين، كما أنه باحث ودارس ومبدع للموال والتراث الشعبى الخليجى، فهو المشرف على مركز التراث الشعبى بالخليج، ورئيس تحرير مجلة "المأثورات الشعبية" كما تتدفق أغانية عبر حناجر مطربى الخليج، وسنقتصر فى

هذه الدراسة على شعره الفصيح كما يتمثل في ديوانيه: "أنين الصواري" و"إضاءة لذاكرة الوطن" أما ديوانه العاميان "عطش النخيل" و"عصافير المساء" فترجئهما لدراسة أخرى، ونركز على تجربته الشعرية في التعبير عن عالم الغوص والبحر. فهو يستند إلى تراث البحر العربي العظيم بدءاً من معلقة طرفة بن العبد. ابن البحرين وشاعر البحر في العصر الجاهلي. وانتهاء بأدب البحر العربي القديم والحديث في صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ بالبحرين. أضف إلى ذلك نشأته في بيت بحارة وغواصين على اللؤلؤ، مما أكسبه خبرات ومعاناة هؤلاء الكادحين في البحر.

راهن الشاعر منذ بداية تعاطيه في التعبير بالشعر المحكى على أن اللهجة المحكية في الوطن العربي آخذة في التطور لتصل في نهاية المطاف أقرب ما يمكن أن تكون إلى اللغة العربية الفصحى في ظل تطور المجتمع العربي وانتشار التعليم وتقنيات الاتصال وانفتاح العالم على بعضه البعض، وقد تأكدت هذه النظرة من خلال ما طرحه الشاعر من أشعار باللهجة المحكية الخليجية وظف بها كل ما هو مناسب من منجزات القصيدة العربية.

ويضيف الشاعر: «ولقد قلت عند بداية السبعينات عند إصدار مواويل (عطش النخيل) بأن كتابة الشعر بالعامية كتابة مرحلية، وأن هذا الشعر بلا مستقبل لأن اللهجة في تطور يومي مستمر بفعل تطور المجتمع وانتشار التعليم، وتنبأت بأن تضيق الشقة ما بين الفصحى والعامية بحيث ترقى العامية شيئاً فشيئاً لتصل أقرب ما تكون للفصحى. هذه الرؤية كانت جلية أمامي وها هي تتحقق اليوم من بعد خمس وثلاثين عاماً كأروع ما تكون فيما يكتبه شعراء العامية الجدد في سلطنة عمان بالتحديد وفي بعض ما يكتبه قلة من شعراء دول الخليج الفارسي الأخرى. فاللغة التي يكتبون بها ليست هي العامية التي كتبت بها أشعاري عند أوائل السبعينيات تلك اللهجة التي لم تكن بالطبع لهجة الشارع وإنما هي امتداد لتلك اللهجة المصفاة التي حملها إلينا الشعر الشعبي في أرقى وأعذب نصوصه.

أبرز مؤلفاته

الأستاذ على عبدالله خليفة من أبرز شعراء البحرين صدرت له عدة دواوين الشعرية، ودراسات أدبية، منها:

أنين الصواري - مجموعة شعرية بالفصحى - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٩ م .

عطش النخيل - مجموعة شعرية بالعامية - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٠ م.

إضاءة لذاكرة الوطن - مجموعة شعرية بالفصحى - دار الآداب - بيروت ١٩٧٣ م.

عصافير المساء - مجموعة شعرية بالعامية - دار الغد - البحرين ١٩٨٣ م.

فى وداع السيدة الخضراء - مجموعة شعرية بالفصحى - دار الغد - البحرين ١٩٩٢م.
حورية العاشق - مجموعة شعرية بالفصحى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٠م.
يعشب الورق - مختارات شعرية - أسرة الأدباء والكتاب - البحرين ٢٠٠٥م.
لايتشابه الشجر - مجموعة شعرية بالفصحى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ٢٠٠٥م.
على قلب واحد - مجموعة شعرية بالعامية - (ألبوم يحوى الديوان برفقة قرص مدمج cd بصوت الشاعر وموسيقى من تأليف محمد حداد) - الأيام للنشر والتوزيع - البحرين.
قمر وحيد - مختارات شعرية ترجمها إلى الفرنسية المعطى قبالي - دار باريس ميدي ترانيه - باريس ٢٠٠٦م.
وشائج - مختارات شعرية ترجمها إلى الفرنسية مع رسوم الفنانة الفرنسية شانال لوجندري ومقدمة نقدية بالعربية للدكتورة نور الهدى باديس ومقدمة بالفرنسية للأستاذ دافيد دومورتية.

الدراسات والأبحاث

ديوان حسن الفرهان (تحقيق وشرح وتقديم) - إدارة الثقافة والفنون - قطر ١٩٨٠م.
فنون الموالي (بحث ميداني لجمع وتحقيق وتوثيق نصوص الموالي في الخليج الفارسي) - ١٩٧١م.
خليج الأغاني (بحث ميداني لتوثيق الأغاني والرقصات الشعبية في الخليج الفارسي) - ١٩٧٩م.
أشكال ومضامين النصوص الشعرية في فن (الفجري) - قطاع الثقافة والتراث الوطني - وزارة الإعلام - البحرين ٢٠٠١م.
الشعر العامي الحديث والتقنيات الجديدة - وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة عمان ٢٠٠٢م.
استلهام التراث الشعبي في الأعمال الإبداعية - مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج - قطر ٢٠٠٣م.

أشعاره

أى قارئ يتصفح دواوين هذا الشاعر البحريني، فإنه دون شك سوف يدرك أنه قد أنشد شعراً فى مختلف المضامين الشعرية، لذلك نجد فى دواوينه يتناول مضامين متنوعة مثل: البحر، والمرأة، والحب، والوطن، والطبيعة،

وبعض الأغراض القديمة. وفي الواقع يمكن القول إنَّ على عبدالله خليفة شاعر البحر والغوص وتعلّم هذا الفن من بيئته وحياة الغواصين الذين كانوا بجواره.

أولاً، البحر والغوص:

يبدع على عبدالله خليفة، ينوعاً متميزاً من أدب البحر. هو شعر الغوص على اللؤلؤ، ويقدم بذلك إضافة ثرية لأدب البحر.

من السطور الأولى في ديوانه الأول "أنين الصواري" تبرز الرؤية الاجتماعية والفكرية للشاعر على عبدالله خليفة، وتمتزج بهموم عالم البحر والغوص، وتتداخل مع قضايا العرب والعالم والتحررية، فيستهل ديوانه بقصيدة "إلى أمي" للتعريف بموقفه ورؤاه، فهو مع الفقراء والبؤساء والمرضى مثلما هو مع المكافحين والمناضلين.

ها همُّ قدُّ أبحروا.. كلُّ الرفاقِ
شرَّعوا بالشَّوقِ في بدءِ انطلاقِ
والمجاذيفُ مضت في البحر..

عُنفاً واتَّساقُ

بينما تلكَ الصَّواري في أنينٍ..

هيَ (النَّهَامُ) في لحنٍ حزينٍ..

لا يطاقُ.

(خليفة، ١٩٩٤م: ٥١)

أنا الإنسان يا أمي،

أنا الإنسان في شتى بقاع الأرض...

في الإصرار.. في الزحف

أنا في اليتيم.. في التشريد..

في التنكيل والعسف

أنا جمع من الفقراء والبؤساء والمرضى

وتاريخ من التشنيت والكبت.

(المصدر نفسه: ٢٧)

أما حياة البحار والغواص فيصورها على عبدالله خليفة في صور قصصية شعرية في قصيدته "على أبواب الرحلة الأولى"، وهو تصوير واقعي اجتماعي يرتفع فيه صوت الاحتجاج والغضب في التعبير عن مأساة الغواص الاجتماعية والإنسانية. فلا مجال للرومانسية لدى شاعر الغوص والبحر البحريني، لأنه اكتوى بمرارات التجربة في عالم البحر والغوص وعذابات العيش ومكابدات الديون والاستغلال ومعاناة الرحلة البحرية. ومن هنا تأتي الاضافة التي يقدمها على عبدالله خليفة إلى لوحة أدب البحر العالمي، أنه يقدم شخصيات جديدة من عالم الغوص على اللؤلؤ، تجلب الثروات لغيرها ولكنها تعالي الفقر والبؤس، ومن المزج بين الرؤية الاجتماعية والصور الواقعية لحياة البحار والغواص وبين معاناة الديون لأصحاب سفن الصيد وتجار اللؤلؤ. وهذا هو ما يصوره على عبدالله خليفة في قصيدته الطويلة "على أبواب الرحلة الأولى" مخاطباً الغوص الجديد في رحلته مصوراً معاناته.

جُلِّ ما يصفى لنا للدين، والباقي زهيد

لايفى قوت العيال

يا له ديانتنا الفظ الصفيق

كجموع الدود في أمعاء غواص فقير

قرحة شوهاء في جسم صغير

أربعون العمر في الكد انقضت

وزفات الجسم للحيثان في قاع الخليج

والذى باق من الدين كثير

يرحم الله أبا.

كان لى نعم الصديق

يا صغيرى،

واقع الحال..كذا كيف الخلاص؟

لا فكاك.. لا مناص

من سداد الدين فى دين جديد

ولكى تأتى بقوت..كى تعيش

الزم الأبحار فى ركب المغاص

(المصدر نفسه: ٢٨)

ويوجه الشاعر حديثة للغواص الجديد كى يشتد فى مواجهة البحر الجبار، ويصور رحلة الغوص الشاقة ومعاناتها
المزدوجة فى عالم البحر العتيف ومأساة الفقر والجوع والوادم. وتتركب الصور من مفردات عالم البحر والغوص
والمعاناة الإنسانية الأليمة.

كن جلوداً.. لا تخف، كن كالحديد

فالذى تقصد جبار عنيف

عندما تهوى المجاذيف على الأمواج

فى عنف طليق

(المصدر نفسه: ٢٩)

ثانياً، المرأة:

لا يمكن للمطلع على شعر على عبدالله خليفة إلا يدرك من الوهلة الأولى أنه شاعر المرأة، ذلك أنها حاضرة فى
شعره حضوراً قوياً وأنها اتخذت أشكالاً متعددة لعل أبسطها وأوضحها للعيان المرأة الحبيبة أو المعشوقة. فغايتنا أن
ندرس حضور المرأة فى القصيدة، كيف عبر عنها الشاعر؟ كيف رسم دورها؟ وكيف جاءت منزلتها الفنية؟ وما هى
الأبعاد التأويلية التى يمكن أن ندرکها لها فى هذا الشعر؟

أرق

لعلك، الليلة، ترقدين هائنة

على سريرِ آمنٍ من القلقِ
تستدرجينَ نجمةً إلى فراشِكِ الدفءِ
وتلعبينَ في حديقةِ المساءِ بالألقِ
وها هنا، غيرَ بعيدٍ منكِ، عاشقٌ
يدوّبُ الحنينَ أسطراً على الورقِ
يغالبُ الهوى الذى يجتاحُهُ...
(خليفة، ١٩٩٢م: ٤٧)

ولعلنا نميل إلى اعتبار أن القصائد الأولى المنتقاة في هذا المؤلف تعكس طبيعة تجربة الشاعر على عبدالله خليفة من حيث خصائص العبارة الشعرية والفنية ولعلنا نلمس فعلاً خصائص للعبارة المباشرة في تصوير عناء "التناب" الصغير مثلاً يغادر أبوية فتشيعه الأم بدموعها ويودعه أبوه متشبثاً برجائه في الله. يغادره إلى البحر وعنايه باحتئاعن "دانة" لم ير الغوص حسناً مثلها أو حوى قلب المحار "دانة" يعشقها إلى حد العبادة وهى فى كون الممكن البعيد أو الحلم الذى يداعب آماله:

وإذا جئت إلى محارة عذراء

فى يوم سعيد

ورأيت الحظ فيها

درة براقه تزهو الخريد

فاحمد الله، وبارك

يومك المعطى الجديد

(خليفة، ١٩٩٤م: ٣١)

إنه حلم جميل ينوء بحمله جسمه العباء و"شرعة البحر تريد الأقوياء" فالعبارة الشعرية على ما فيها من ألق وإتقان تبقى عبارة مناضلة كادحة تعكس نضال الشاعر ومؤازرته للكادحين من أجل قوت يومهم.

كن جلوداً..لاتخف، كن كالحديد

فالذى تقصد جبار عنيد

(...)

إلزم الإبحار يا ابن الكادحين

طائعا لكل (تباباً) ظريف

لايمل الجرى من ركن إلى ركن ..خفيف

(المصدر نفسه: ٣٠)

ثالثاً، الوطن:

إذن فإن الاحساس العميق بالوطن مما يميز تجربة الإنسان البحرانى ويشده إليه حتى وهو فى غربته منفيماً أو مسافراً.فالتقارب العائلى المنتشر بين أسر المجتمع البحرانى والهدوء والأمن اللذان يسودان ربوع البلاد وبخاصة منذ بدايات هذا القران والبساطة المتناهية فى العلاقات الاجتماعية، وعراقة التواجد الاجتماعى وطمأنية العيش وتوفر مصادره المختلفة، كل ذلك غرس الحب العميق فى قلب الإنسان البحرانى لوطنه والنضال من أجله وهو على أرضه وكما غرس فى روحه الحنين الطاغى والتوق الدائم إليه وهو بعيد عنه، إضافة إلى التسامح الإنسانى والانفتاح على مختلف الأجناس والأديان والقيومات والطوائف الذين اتسم بهما المجتمع البحرانى، إذ منحاه أفقاً انسانياً أوسع مما عمق تجربته الحضارية والفكرية.

زرقة البحر قامت

على كتفها طفلتان

طفلة قبّلتنى ونامت

حقول (بباي) حزين بحضن المروج

طفلة عذبتنى طويلاً طويلاً

(....)

فاسترح يا ترابَ الخليج

واشربِ الحرقَةَ اللاهبة

سوفَ يرشَحُ يوماً

لكَ الطوبُ في الأبنية

رغوةَ الشمسِ والياسمينِ

وخطفَ البريقِ

إسترح، يا ترابَ الخليج

إسترح، يا ترابَ الخليج

...انتظرنى.

(خليفة، ٢٠٠٠م: ٧)

رابعاً، النخلة:

النخلة مظهر من مظاهر الطبيعة ولها معنى خاص في حياة الإنسان البحراني ولها مذاق متمايز في نفسه ينطوى على كثير من المرارة والعذاب على الرغم من الجمال الظاهر الذي تبدو عليه النخلة.

كانت النخلة بالنسبة للإنسان البحراني هي الأم الحقيقية التي لم يكن يستطيع أن يعيش غيرها، فإن البحر هو أبوه الشرعي ومانحة الخير والرزق والحياة.

في قصيدة "في وداع السيدة الخضراء" يخاطب الشاعر على عبدالله النخلة ليودعها فيقول عندما يقضى عليك التوسع العمراني والتطور الاقتصادي وتقطع اجزاءك ليحل محلها الاسفلت لايبقى منك سوى جذورك في باطن الأرض وهذه الجذور التي تدل على الحياة إلا أنّها لك أيتها النخلة قد بقيت لمجرد ذكرى للملايين النخيل وقد اختار العدد مليون لشهرة البحرين قديماً باسم أم المليون نخلة.

عندما يغرقك المدُّ،

ويمحو ذكركِ الأسفلتُ

تبقينَ بجوفِ التربةِ السمراءِ عرقاً.

واهناً، ذكرى حياة

لملايين البواسق، سيدات الشجر المعطى

(خليفة، ١٩٩٢م: ٧٠)

وقد وصف الشاعر هذه النخلة بالسيدة التي تعطي كما وصفها بالمرأة لتوافر عدة أوجه شبه بينها وبين النخلة منها: طول النخلة وجسمه النخيل والرطب المعلق بالنخلة كالثقالة المعلقة على رقبة الفتاة وأيضاً عطاء النخلة.

ويشير الشاعر بثبوت النخلة ويقول الغيوم حامل سلام الأنهار والبحر وأجرام السماء لأجل النخلة:

حيثما امتدَّت على الأرض فلاة

ثابتٌ أصلُك، فرعاء،

رذاذُ الغيمِ يقربكِ سلامِ النهرِ والبحرِ والأجرامِ

السماء

(المصدر نفسه: ٧١)

وفى نهاية قصيدة فى وداع سيدة الخضراء يشكو الشاعر من قطع الأشجار ودمار الحقول ويحزن على عدم وجود نخلة:

ما الذى يمكنُ للطفل الذى يغفُو على حِضْنى أقول

عندما يلمحُ ظلاً لبقاياكِ بأطرافِ الحقول

ويغنى بعضَ ما جُنَّت به الدُّنيا، وماتت

من تباريح أساه الشعراء؟

ما الذى يمكنُ يا سيدتى الخضراء؟

والدنيا تُغادر

لونها الأخضر،

والأرضُ التى كان لها عُرسُ البذار

قتلت أشواقها الحرى

وقالت للرجال الجوف: هاتوا

كل ما تبقون إسمنت وقار؟!

(المصدر نفسه: ٧٢)

الرمز والواقع

إنَّ تغير البنى الاجتماعية والاقتصادية، وما رافقه من تطور فى ركائز المجتمع التحتية ساهم فى تشكّل حالات جديدة يعيشها الإنسان البحرانى، استدعت ظهور معضلات جمّ ومشكلات متنوعة، كان لا بدّ من الوقوف عند عقدها وتعقيداتها، واتخاذ المواقف المناسبة تجاهها. وقد وقف الشعراء البحرانيون من مشكلات وطنهم مواقف واقعية، وواقعية الرمزية حيناً، ومواقف بعيدة عن الواقع هاربين من خلالها إلى مشارف الرومانسية، حيناً آخر. وأفاد كثيرون منهم، وخاصة شعراء الستينيات والسبعينيات، من تيارات الواقعية المتنوعة، وطوعوا الرمز فى أشعارهم، واستلهموا الأساطير المحلية والعالمية، ووظفوها لتكون عاملاً جمالياً فى نتاجاتهم الإبداعية.

جاءت أعمال على عبدالله خليفة الشعرية لتدل على تجربة ذات خصوصية واقعية، جديرة بالدراسة والاهتمام.

تتجلى الواقعية واضحة فى قصائد الغوص، إذ يقف الشاعر فيها إلى جانب الغواص الفقير المستغل مواجها التاجر والسمسار المستغل وبذلك يتضح موقف على عبدالله خليفة التابع من انتمائه الطبقي، وإحساسه بالمعاناة التى عاشها كل بحار مستغل.

ولقد أراد خليفة أن يصور الظلم الواقع على العمال، كما أراد عبد الصبور أن يصور الظلم الواقع على فلاحى قرية دنشواى، فقدم نصاً تفوح منه رائحة البؤس، وصف فيه حياة الطفل سلطان. ونكاد نجد الريف وعيش أبنائه يفيضان بالطيبة والمرح، رغم فظاعة الواقع وجوره

كانت له عينان نجمتان

كان طيبا...

ككل حقل ها هنا بصفة الخليج

بالأمس طفلا عاش فى أزقة الحى الكسير

يضاحك الصغار

ويستحم عاريا فى البركة الكبيرة

ويسرق الجريد والثمار

من نخلة الجيران

(خليفة، ٢٠٠٠م: ٦٧)

يقدم ديوان "إضاءة لذاكرة الوطن" صورا واقعية عن الوطن الحزين، المشتت فى زوايا المشكلات المتفاقمة. لكن هذه الصور الواقعية تأخذ ملامح رمزية، تضى على نصوص بعض القصائد قراءات مجازية متعددة.

كما فعل فى سطور "آثار أقدام على الماء"، ذكرا اسم النائر عبدالله حسين نجم. ويكتب قصيدة "حزن ليلى: طفول"، مبينا فيها الحزن الثقيل المهيم على حياة الأطفال الذين غدوا ضحايا قمع السلطة، بعدما أخذ جلاوزة الحكم ينكرون بالنائرين ويقتلونهم. ومن هؤلاء المضطهدين من كان معيلا لأسرة كبيرة. وما ليلى وطفول إلا طفلتان فقدتا أباهما فى خضم الاستبداد، الذى استشرى بالبحرين آنذاك

دامع قلب ليلى، وكنت أسرح شعر طفول

وكانت طفول تنادى أباهما الذى غيبوه، وتمسح

للباسمين البرىء شذا دمعه

(المصدر نفسه: ١٠)

منذ بداية القصيدة أراد الشاعر وضعنا في جو شجي مستخدما بعض الرموز الرامية إلى إضفاء معنى الحزن على النص الشعري، فاستقدم لفظه "البباى"، لتكون رمزا يفضى إلى جو الكآبة المهيمن على سطورها كلها:

زرقة البحر قامت

على كتفها طفلتان

طفلة قبلتنى ونامت

حقول (بباى) حزين بحضن المروج

(المصدر نفسه: ٧)

فهل أحسن الشاعر حين أتى بهذه الكلمة رمزا للحزن؟ إن البباى بلفظه الغريب وشكله الذى لا يعرفه، كما نعتقد، أناس كثيرون فى معظم أرجاء بلاد العرب، لا يفلح فى توليد مشاعر الحزن فى وعينا، وفى شعورنا الداخلى. هو فاكهة غريبة نادرة، من الصعب أن تقبل بها رمزا لشيء شائع وعمام، هو: الحزن. وثمة ألفاظ كثيرة كانت ستعطى معنى أكثر عمقا، للتدليل على حالة الأسى والشجن، لو أن الشاعر استخدمها عوضا عن كلمة "البباى". بيد أن الشرح الذى وضعه الشاعر على هامش الصفحة، يمكنه أن يفيد القارى فى تلمس قامة الرمز المراد؛ فالبباى - كما ورد فى الهامش - "من الفواكهة النادرة التى تنمو فى تربة الخليج المالحة". ولعل الشاعر وجد فى معاناة هذا النوع من الثمر النابت فى قلب الملح، موطننا للكآبة والأسى.

وهكذا نجد عالم على عبدالله خليفة الشعري - بالإضافة إلى كونه رومانسيا - عالما واقعبا ورمزيا لا يخلو من الأسطورة، فهو متحف غنى بالرموز التى تطورت بتطور شعره، فكانت فى بداياته بسيطة سطحية، وأضحت مركبة عميقة المعنى، بعيدة الأغوار فى منطقتها، تحتمل تفاسير متعددة الجوانب. إن هذا التنوع الرمزي وليد تجربة غنية عالجت قضايا وطنية وإنسانية، وانتهت إلى الطبيعة والحيوان والنبات، وما زالت عناصرها تتسع لتطال جميع مناحى الخلق والوجود. (شهادة، ٢٠٠٨م: ١٥٩)

النتيجة

يعتبر على عبدالله خليفة من أبرز رواد الشعر في ساحة البحرينية وينتهج الروماتيقية مسلماً في أشعاره . إضافة إلى تفننه في إنشاء الأشعار الفصيحة له باع طويل فة إنشاء الأشعار العامية تُسمى "الموال" وله ثلاثة دواوين شعرية في هذا المضمون قد انتهى من صياغتها.

لعبت بيئته المعيشية دوراً كبيراً في أنشاده الأشعار الفصيحة كما صاغ كلمات ملائمة بظروف التي كانت تمر في حياته ونرى في ديوانه الأول "أنين الصواري" قد جسّد حياة غواصي اللؤلؤ ومهنتهم الشاقة ومكابد سفرهم في سياقٍ مسرحي جميل.

قد امتزجت في أشعاره بعض المعانى والرمز والواقع بشكل جميل وقد تكاد لاتخلو من أساطير.وقد تكون هذه الرموز في بداياته بسيطة سطحية ولكن يكمن في مضمونها تفاسير عدّة وتحمل في طياتها معانٍ مختلفة. إن هذا التنوع الرمزي وولد تجربة غنية عالجت قضايا وطنية وإنسانية، وانتبهت إلى الطبيعة والحيوان والنبات، وما زالت عناصرها تتسع لتطال جميع مناحي الخلق والوجود.

وهذا ما لمسناه عند تتبع مسار على عبدالله خليفة الشعري من خلال مجموعاته العديدة، حيث شاهدناه يقفز من ديوان إلى آخر تاركاً في كل ديوان بصمة جديدة، يعود إلى ظلالها من حين لآخر، مضيفاً إلى عذوبة كلماتها نداوة، وإلى ضراوة إيقاعاتها حلاوة.

المصادر والمراجع

خليفة، على عبدالله. ٢٠٠٠م. إضاءة لذاكرة الوطن. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

خليفة، على عبدالله. ١٩٩٤م. أنين الصواري. المنامة: دار الغد.

خليفة، على عبدالله. ١٩٩٢م. في وداع السيدة الخضراء. البحرين: دار الغد للنشر والتوزيع.

خليفة، على عبدالله. ٢٠٠٩م. وشائج. بيروت: المؤسسة العربية للطباعة والنشر.

شحادة، يوسف وميخالك، بربارا. ٢٠٠٨م. في عالم على عبدالله خليفة الشعري. حلب: دار عبد المنعم الناشر.

مؤمني، صمد. ١٣٩٠. «دراسة أبعاد الوطن الفنية والاجتماعية في شعر البحرين المعاصر». فصلية دراسات الأدب المعاصر. السنة الثالثة. العدد الحادي عشر. صص ١١٣-١٣٠.